غزوة الإسكندرية

(٧٦٧ هـ – ١٣٦٦ م)

دوّن محمد بن قاسم النويرى المالقى الإسكندرانى – المؤرخ المصرى – أحداث غزوة بطرس ملك قبرص . للإسكندرية (٧٦٧ هـ – ١٣٦٦ م) كما عاصرها . وتعتبر مخطوطتة النادرة « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية » مرجعاً فريداً لأحداث الحملة[١] .

وليست صورة المخطوطة الموجودة فى دار الكتب كاملة . لكنها تكمل الجزء الأول من المخطوطة الأصيلة الموجودة فى برلين (رقم ١١ Wetzstein II)[٢].

---

(١) للمخطوطة صورة فى دار الكتب المصرية (رقم ١٤٤٩) مذكورة فى فهرسها التاريخى (ص ٣٨) ومنذ سنوات يعنى المؤرخ المستشرق إتيين كومب . مدير المعهد السويسرى للآثار المصرية بدراسة المخطوطة . وقد نشر فصلا من دراستة فى مجلة جمعية الآثار اليونانية الرومانية فى اسكندرية :

— Les Présages annonçant la Croisade de Pierre de Lusignan et les causes de cette attaque. p. 58... Soc. R. d'Arch. Alex. Bull. 37. 1948.

نشر الأستاذ كومب منتخبات من المخطوطة فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . المجلد ٣ .

– وقد عنى ببحث تلك الغزوة الأستاذ كاهله المستشرق الألمانى . ونشر لها ملخصا قيما فى مجلة معهد الآثار الشرقية الفرنسى بالقاهرة عام ١٩٣٥ .

— Kahle : Die Katastrophe des mittclaterichen Alexandrien. Melange Maspero. III. Mem. Inst. France. Tome 68, p. 137-154. Le Caire. 1935.

(٢) قام بدراسة المخطوطة المؤرخان هيرزوهن وكابيتانوفتشى .

— Herzohn : Der Ueberfall Alexandriens durch Peter 1. von Lusignan. Dissertation. Bonn.

— Capitanonvici : Die Eroberung von Alexandria durch Peter 1. von Lusignan. Berlin.

الإسكندرية فى العصور الوسطى

من الصعب الحصول على صورة كاملة لما كان عليه تخطيط الإسكندرية فى العصر العربى حتى العصر الأيوبى . بالرغم مما ذكره الرحالة عنها .

كان للإسكندرية سورمنيع تكتنفه الأبواب والأبراج . بنى جزء كبير منه فى أيام حكم أحمد بن طولون . كما عمر بعضها .

وكذلك عنى السلطان صلاح الدين الأيوبى ومن جاء بعده من أحفاده بحصون ذلك الثغر عندما هدد الصليبيون البلاد بهجماتهم ضد دمياط ورشيد . وأتمّ سلاطين المماليك الأول ولا سيما بيبرس جهود التعمير الحربية التى بدأها هؤلاء .

وفى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون (١٣٠٢ م) حدث زلزال كبير أصاب مدينة الإسكندرية ومنارها وسورها وحصونها . وقد ذكر المقريزى أن ما هدم من السور كان ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجا ، وأن السلطان قد كتب لوالى الإسكندرية بعمارتها . فعمرّها .

ويفهم من وصف المؤرخ النويرى — وهو من سكان الإسكندرية — فى منتصف القرن الرابع عشر أنه كان يحيط المدينة ثلاثة أسوار . أحدهما داخلى مما يلى البلد ، وثانيها خارجى يشرف على ما يحيط بها ، والثالث بينهما . فقد ذكر وهو بصف موكب السلطان عند دخوله المدينة . . . إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد . . . « ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث فشاهد البحر . . . » وكان هناك بين كل سور والآخر فيصل يفصل بينهما ، كما كان للسور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع مشحونة بالعدد والسلاح والأتراس تخفق عليها الأعلام . وكان للسور الخارجى أبواب عدة كان أهمها باب رشيد فى شرق المدينة . وهو المؤدى إلى الطريق المنتهية إلى مدينة رشيد ، وباب البحر وكان يواجه الميناء الشرقية ، والباب الأخضر ، وهذان كانا فى شمال المدينة . وباب القرافة فى غربيها وكان لا يفتح إلا فى يوم الجمعة ، وباب سدرة أو باب

العمود أو باب البهار فى جنوبها » . وكانت العادة القديمة إذا زار السلطان المدينة أن تفك أبوابها وتلقى على الأرض إلى أن يرحل فيعاد تركيبها .

وكان هناك خندق يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر (باب الغرب)، وكان قصر السلاح بالقرب من هذا الباب، وهو قصر ذو قاعات كثيرة مشحونة بمختلف السلاح والعتاد الحربى . وبالقرب من الباب الأخضر ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى . وعلى مسافة الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة وبجواره دار السلطان .

وكان للإسكندرية ميناءان كما هو الحال اليوم يفصلهما لسان طويل من الأرض اتصلت به جزيرة منارة الإسكندرية، وكانت الميناء الشرقية فى القرون الوسطى مخصصة لسفن المسيحيين، وإلى القرب منها باب البحر والباب الأخضر، وقد عرفت هذه الميناء فى العصور الوسيطة بحر السلسلة لأنه كانت له سلسلة من الحديد تغلق بها الميناء فى الليل لحراستها ومقاومة الاعتداء عليها .

ولم يقف بعد أحد رجال الآثار على موقع دار الضرب التى كانت بالإسكندرية ومثيلتها بالقاهرة .

تلك أهم أسوار الإسكندرية الإسلامية وأبوابها إلى منتصف القرن الرابع عشر، ولكن خرّب القبرصيون الكثير منها فى أثناء غارتهم .

وفى أواخر القرن الخامس عشر أمر السلطان الأشرف قايتباى ببناء حصن كبير يعرف منذ إنشائه ببرج قايتباى، ووقف عليه الأوقاف الجليلة، كما عنى بتحصين الإسكندرية ورشيد ومعظم الثغور فى الديار المصرية والشامية . كما اهتم بذلك السلطان الغورى من بعده .

وتختلف أقوال الرحالة بصدد أسوار الإسكندرية فى خلال القرن الرابع عشر . واستطاع كاهله المؤرخ الألمانى أن يصل إلى النتائج الآتية :

(ا) السور الشمالى :

يحتوى على باب البحر — باب الاسبلاناد — باب الميدان — باب الحمام — الباب الأخضر .

(ب) السور الغربى :

يحتوى على باب الخوخة (القرافة) .

(ج) السور الشرقى .

يحتوى على باب رشيد .

(د) السور الجنوبى :

يحتوى على باب سدرة أو باب الشجرة — باب العمود — باب سيدى الصنورى ، وقديماً كان يطلق على أبواب السورين الشرقى والجنوبى — أبواب البر .

قبرص فى القرن الرابع عشر

حين ولى بطرس الأول عرش مملكة جزيرة قبرص ، بعد وفاة أبيه هوج الرابع فى عام ١٣٥٩ م ، كان شاباً يتدفق حماسة وحيوية ، وتجيش نفسه برغبة ملحة للانتقام من العثمانيين والمسلمين . وقد رأت فيه المملكة اللاتينية المعاصرة خير مجاهد يعيد للعالم المسيحى سيادته المفقودة على الأراضى المقدسة .

أما قبل اعتلائه العرش -- وهو أمير طرابلس — فقد كان صاحب الفضل فى إنشاء فئة السيف التى تألفت من الفرسان المسيحيين الشبان الذين هدفوا إلى تخليص الأراضى المقدسة وإعادتها للمسيحيين ، وقد انضم إلى هذه الفئة فرسان الأمم المسيحية . من فرنسا وإسبانيا وروما ولومباردى وألمانيا وإنجلترا وسردينية . ولكن لما عجز هؤلاء عن الاستيلاء على بيت المقدس تحولوا إلى الدفاع عن قبرص التى كان المسلمون يهددونها بغزواتهم .

وتحقيقاً لهذه الغاية اتفق الملك الشاب سراً ، فى حياة أبيه ، مع أخيه « جان دى لوزينيان » أمير أنطاكية ومحافظ قبرص للتأهب والاستعداد . واستطاع الشقيقان مع زمرة من الفرسان أن يقلعوا على ظهر سفينة مشحونة بالأسلحة فى عام ١٣٤٩ . فلما وقف الأب على نبأ تلك المغامرة غضب للغاية ، وعمل كل ما وسعته الحيلة لإلقاء القبض على الخارجين ، فوفق فى اللحاق بهم والقبض عليهم وأمر باعتقالهم فى حصن كيرينيا عقاباً لهم . وقد حزن الملك العجوز مما عجل بوفاته فى ١٠ أكتوبر ١٣٥٩ .

وكان من أخلص أعوان الملك الشاب اثنان من الأصدقاء المتحمسين للكنيسة، وهما فيليب دى ميزبير (Philip de Mézieres) وبطرس دى توماس (Pierre de Thomas) اللذان أخذا على عاتقهما الدعاية للنضال ضد المسلمين . وهكذا رأينا قبرص الصغيرة تقف وحيدة فى محيط النفوذ الإسلامى، تدافع بحراره لاسترداد بيت المقدس . ولم يكن منتظراً من أرمينية أن تضطلع بدور الكفاح ضد المسلمين نظراً لحرج موقفها لمجاورتها الأمارات الإسلامية وعلى النقيض من قبرص التى كانت آمنة نظراً لموقعها البحرى ولضعف سيادة مصر البحرية فى ذلك الحين . فإذا تزعمت النضال ضد المسلمين فلإنها تحظى بموقع متوسط بين الغرب والأراضى المقدسة يضعها فى طريق الحجاج المسيحيين فضلا عن مكانتها التجارية التى جعلتها فى بحبوحة من الثراء .

رأينا أن أخلاق بطرس وطبيعته كان لها أثر كبير فى تشكيل سياسته الحربية للقضاء على النفوذ الإسلامى فى آسيا الصغرى ومصر — ولأجل ذلك رأى من الضرورى أن ينشئ قاعدة عسكرية على الأرض الأسيوية ليتخذها تكأة لتحقيق مقاصده الحربية . وتشاء الظروف الحسنة أن يتجه «ليو» الخامس ملك أرمينية طالباً نجدة ملك قبرص عندما هاجمه المصريون ثم الأتراك، ويعرض التنازل عن جوريجوس[1] إلى بطرس لقاء مساعدته للدفاع عن أرمينية . ويرسل سفارة خاصة مؤلفة من روميين هما ميشيل بساراريس وكوستاس فيلستيس إلى الملك الجديد فى عام ١٣٦٠ . وبعد مفاوضة قصيرة قبل الملك ما عرضاه عليه .

وفى ١٥ يناير ١٣٦٠ أوفد عدة سفن حربية تحمل أربع سرايا من حملة القسى بقيادة فارس إنجليزى اسمه روبرت دى لوزينيان » لتسلم جوريجوس، وما إن وصلت الحملة حتى فتح الأهالى أبواب مدينتهم وحلفوا يمين الولاء للملك بطرس . وهكذا وضعت قبرص قدميها على جزر آسيا الصغرى .

---

(١) جوريجوس أوكوريشو كانت تقع على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى بالقرب من مصب نهر ساليفى فى داخل الحدود الأرمينية .

ولكن ما علم الأتراك بما حلّ بالقرب منهم حتى فطنوا إلى مشروع قبرص المقبل، فبدءوا يتدبرون للدفاع عن بلادهم قبالة الاعتداء المرتقب .

وسرعان ما حل التآلف بين الأمراء المسلمين بزعامة إبراهيم بك القرمانى ، أقوى حكام الترك فى آسيا الصغرى فى القرن الرابع عشر [1]، ومعه أمراء علاية وتيكى وأضاليا ومانافجات [2] .

والمعروف أنه كان من نتيجة هذا الحلف أن جمع الأمراء عدة سفن حربية للهجوم على قبرص وكبح جماحها ولكن لم يقف أحد بعد على ما تم من خططهم . ومن المؤكد أنه بمجرد أن وصل إلى الملك بطرس أخبار هذا الاستعداد اتجه أسطوله القوى واستولى به على أضاليا على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى .

وبدأ الملك يتصل بفرسان رودس لكى يمدوه بأربع سفن حربية تعينه على حربه ضد المسلمين ، ثم أمر قادة جيشه بأن يكونوا على قدم الاستعداد للحرب المقدسة ، وأعد لهذا الجيش أسطولا كبيراً تجمعت سفائنه فى فاماجوستا .

ووصل إلى بطرس سفينتان من البابا واثنتا عشر سفينة من القرصان اللاتين . تضاف إليها سفن رودس الأربعة و ٤٦ سفينة قبرصية وغيرها من جهات متعددة . فأصبح تحت إمرته أسطول كبير تألف من ١١٩ سفينة .

وفى يوم الأحد ١٢ يوليه ١٣٦١ أبحر الأسطول والجيش من ثغر فاماجوستا تحت إمرة الملك بطرس القائد العام للحملة — وكان كل أمير على رأس رجاله فى سفنهم الخاصة — من روديسيين وجنوبين وغيرهم . وقيل إن أمير تيكى وهو صاحب أضاليا لما اشتبه فى أمر الحملة راسـل الملك بطرس ليثنى رجاله عن هدفهم — ولكن لم تجد هذه التوسلات نفعاً . وفى ٢٣ أغسطس ١٣٦١ نزلت الحملة فى مكان صغير اسمه تيترام يلى بالقرب من أضاليا . وكان موقع هذا الثغر يشرف على الخليج الكبير المسمى باسمها وهى

---

(١) اضمحلت هذه الإمارة بالتدريج حتى خضعت فى عهد محمد الثانى (١٤٦٧) ثم ضمت نهائياً إلى الأمبراطورية العثمانية فى عهد بايزيد الثانى عام ١٤٨٦ .

(٢) الدكتور عزيز سوريال عطية — الصليبية فى العصور الوسطى المتأخرة بالإنجليزية ص ٣٢٥ والهامش .

منفذ جيد لتجارة آسيا الصغرى فى الجنوب .

ولما لم تكن حامية الثغر قوية وفيرة العدد فقد سار الملك إليها بسرعة وأحاط بها جنده من كل جانب وضيقوا الحصار عليها مما جعل أهلها يفكرون فى التسليم حقناً للدم المسفوك — ففتحوا أبوابها واندفع الأعداء بجحافلهم إلى قلب المدينة . واستولوا عليها واستبدلوا حاميتها بأخرى قبرصية وعين الملك « جاك دى نوريز » حاكماً على المدينة .

وفى ٨ سبتمبر ١٣٦١ اتجهت بقية الجيش إلى علائية ثانية المدن فى الأهمية شرق أضاليا . وقد أسرع أميرها فى تسليم مقاتيح المدينة إلى الملك حقناً للدماء . . . وهكذا سلمت بقية المدن الصغيرة وقبل حكامها الخضوع لقبرص .

وانتهت الحملة وعادت السفن إلى ثغور قبرص كما وصل الملك بطرس إلى عاصمته نيقوسية حيث قوبل بالحفاوة . ولكن ما كاد ينسحب معظم الجيش القبرصى من تلك الثغور حتى بدأ بعض الأمراء المسلمين يجمعون كلمتهم لاسترداد أضاليا . وبدءوا فعلا فى حصارها . واستطاع الحاكم القبرصى ورجال حاميته مقاومة المهاجمين مدة طويلة حتى وصلت إليه النجدات من الجزيرة فى مايو ١٣٦٢ واستبدل « جاك دى نوريز » بحاكم آخر هو جان دى سور » أمير البحر القبرصى — وقد اتخذ هذا التدابير الحازمة فهاجم ثغر ميرة وحرقها وأسر حاميتها وأمر بإصلاح أسوار أضاليا وزادها منعة لمقاومة أى اعتداء فى المستقبل .

استأنف أمير تيكى وعلائية هجومهم على المدينتين براً وبحراً بغية استردادهما واشتعلت الحرب عنيفة بين الجانبين . ولكن لم يصادفا غير الهزيمة والانسحاب وأخيراً وضع الأمراء خطة لمهاجمة الجزيرة القبرصية لما علما بسفر الملك إلى الغرب وانتشار الوباء فى الجزيرة ، واستطاع محمد ريس أن يشن عدة غارات على مقاطعة كارباس فى قبرص وعاد محملا بالغنائم والأسرى إلى آسيا الصغرى ، ولم يتردد فرانسسكو سبينولا الوصى على قبرص فى الانتقام ، فأعد أسطولا قاده إلى مياه المسلمين ، بيد أنه مات فى إحدى المعارك وكانت خسائر محمد ريس

فادحة للغاية ولم يستطع العودة إلى شواطئه فقصد طرابلس الشام واستنجد بأميرها .

وفى ذلك الحين تآمر الجنويون ضد قبرص فلم تستطع هذه أن تنتقم من المسلمين . وبالرغم من ذلك استمرت أضاليا فى قبضتها حتى عام ١٣٧٣ لما ضعفت سطوة قبرص على أيام الملك بطرس الثانى الذى فقد كل ممتلكاته فى آسيا الصغرى .

قام بطرس الأول يجاهد للمرة الثانية فاتصل بجميع ملوك وأمراء الدولة اللاتينية المسيحية يسألهم العون لتحقيق أحلامه فى القضاء على المسلمين وليعبئوا كل قواهم لمجابهة الخطر الذى يهددهم . ولتحقيق هذه الغاية غادر قبرص للاتصال شخصياً بهؤلاء ، وقضى ثلاثة أعوام متنقلا من دولة إلى أخرى . وفى كل مكان حلّ فيه كان يبحث عن منجدين يمدونه بالمال والرجال والسفن والسلاح . . .

قصد رودس والبندقية ولمبارديا وفيرونه وميلان وجنوة حيث قضى وقتاً طويلا يزيل سوء التفاهم الذى ساد بين جنوة وقبرص . ثم سافر إلى أفينون حيث كان يقيم البابا ، وانتهز الفرصة لمفاوضة الأمراء المسيحيين الذين كانوا يقيمون فيها وفى طليعتهم جان الثانى ملك فرنسا الذى كسبه إلى جانبه . ثم بارك البابا أوريان الخامس الحرب المقدسة ضد المسلمين وكان ذلك فى ١٤ أبريل . وبعد ذلك قصد الملك فلاندرز وبرابانت وألمانيا وبازل واستراسبورج وماينز وكولونيا ثم عبر الحدود الفرنسية وقصد باريز للاتفاق على الخطة الختامية للحرب مع الملك جان الثانى الذى وعده بالمسير إلى الحرب فى العام التالى لمقاتلة المسلمين . ومن باريز اتجه الملك إلى روان وكاين لمقابلة شارل دوق نورماندى (شارل الخامس) الذى لم يعده بأية نجدة . ومن هناك قصد كاليه التى أبحر منها إلى إنجلترة لمقابلة ملكها أدوار الثالث الذى قدّم إليه سفينة حربية كبيرة وبعض الأموال .

وعلى هذه الصورة لم يترك الملك ملكاً أو أميراً فى غرب أوربا إلا قصده لانتزاع نجدة منه فى سبيل تحقيق هدفه الدينى . بل إنه قصد أيضاً بولندة والمجر حيث لقى من ملوكها معاونة تامة . وأخيراً عاد إلى البندقية للتفاهم مع

أمرائها فيما يتعلق بالتعاون البحرى . وفى ٢٧ يونية بارح البندقية وكان قد أرسل تعليماته إلى الوصى فى الجزيرة أعداد الأسطول القبرصى والإقلاع به لمقابلته فى جزيرة رودوس . وكان هذا الأسطول الذى تم إعداده يشتمل على القطع الآتية :

٣٣ سفينة نقالة للخيول .
١٠ « تجارية .
٢٠ « طراز الحمامة .

إلى غير هذه من السفن الحربية التى وصل عددها إلى مائة وثمانية سفينة .

وقام الوصى على رأس هذا الأسطول بعد أن عين « جاك دى نوريث توركوربلييه » وصياً فى مكانه .

وصل الأسطول رودس فى ٢٥ أغسطس وكان فى انتظاره الملك ورجاله فقوبل بالتكريم والتشجيع . وانضم أسطول رودوس المؤلف من أربع سفن حربية كبيرة ومائة فارس كبير تحت إمرة فرلينوديراسكا . هذا إلى جانب أسطول البندقية(١) .

ويتسنى إجمال قوة أسطول الأمم المتحالفة فى البيان التالى :

١٦٥ سفينة من طراز مختلف (اتفقت معظم المصادر على صحة هذا الرقم) وبات كل شيء معداً فى أكتوبر ١٣٦٥ . ثم صدرت أوامر المسير فى موجة من الحماسة بلغت ذروتها بعد أن وصلت الملك أنباء استيلاء قواته على أزمير وأضاليا . وفى هذه المرة اتجه الأسطول القبرصى إلى الإسكندرية ثغر مصر .

الأحوال فى مصر

كان يغشى مصر فى ذلك الحين الاضطراب والفساد وتعمها الفتن والفوضى . وكان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره هو السلطان الملك الأشرف شعبان . وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا

(١) Aziz Suryal Attiya : The Crusade in the later Middle Ages. page 343.

العمرى الخاصكى . وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين . وتشاء الظروف أن والى الإسكندرية وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام كان متغيباً عن الإسكندرية يؤدى فريضة الحج . وكان ينوب عنه أمير آخر أقل منه دربة وأصغر مرتبة هو الأمير جنغرا .

الاستيلاء على الإسكندرية

وضع ملك قبرص خطة الحملة على إسكندرية وعاونه فيها اثنان من رجاله المخلصين هما بيير دى توماس وفيليب ميزييرس، وقد أحاطها الثلاثة بسرية كاملة حتى غادروا رودس وذلك خوفاً أن تتسرب إلى رجال الوحدات الإيطالية المشتركة فى الخطة . ذلك لأن محاربتهم للمسلمين ستؤثر على علاقاتهم التجرية مع المسلمين .

وفى يوم السبت الموافق ٤ أكتوبر ١٣٦٥ امتطى الجنود سفنهم ووقف « بيير دى توماس » بين رجال السفينة الملكية يخطب فيهم عن مزايا الجهاد المقدس . ولما انتهى من خطابه علا صياح الجند والبحارة بهتافات داوية « لتعش ولتعش أورشليم وملك قبرص. . . والويل للمسلمين الكفار ! . . . » ثم أعطيت الأوامر لقباطنة السفن للاتجاه نحو ساحل آسيا الصغرى حتى يصلوا إلى الجزيرة الصغيرة كرامبوزا التى تقع بالقرب من رأس خلدونيا شرق ميرة فى خليج أضاليا — كانت هذه هى الخطوة الأولى التى أذيعت من الخطة العسكرية العامة — ومن هناك تغير اتجاه السفن واتخذت طريق إسكندرية .

استغرقت الرحلة إلى المياه المصرية نحو خمسة أيام شبت فى خلالها عاصفة هوجاء فبعثرت السفن شرقاً وغرباً . لكنها عادت إلى التجمع قبيل الوصول إلى الإسكندرية فى يوم الثلاثاء الموافق ٩ أكتوبر .

وهنا ينبغى أن نلقى الضوء حول الأسباب التى اختيرت من أجلها الإسكندرية كهدف للحملة، كما ينبغى أن نسرد أهم الحوادث التى أفضت إلى هذا الاعتداء . ولأجل ذلك نرجع إلى الأسباب التى بسطها محمد بن القاسم بن محمد النويرى

السكندرى صاحب مؤلف الإعلام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية ، وكان مقيما فى هذا الثغر خلال الحملة[١] .

تلك هى الأسباب السبعة التى ذكرها النويرى :

الأول — أن السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك الناصر قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرهما منع دواوين النصارى فى عام ٧٥٥ هـ (١٣٥٣ م) من الديونة ، وأن أحداً منهم لا يكتب بديوان إلا إن أسلم . ومن بقى على نصرانيته يلبس خشن الثياب ، وأن تقصر أكمامهم وأذيالهم وتصغر عمائمهم ويركبون الحمير على شق واحدة وكذلك ساير النصارى . فامتثل لذلك .

الثانى — قيل إنه لما ولى الملك بعد موت أبيه عرش قبرص أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله أن يرسل له بالتوجه إلى صور بساحل الشام ليجلس على عمود بها كعادة كل من تملك جزيرة قبرص ليصح له نفاذ حكمه فى رعيته ، فاحتقره السلطان ومنعه الدخول إلى صور .

الثالث — أنه أتت إلى الإسكندرية فى شوال ٧٥٥ هـ (١٣٦٣ م) سفينة عليها قراصنة من الأفرنج وعبثت فى الثغر كما خطفت ما قدرت عليه بين الميناءين الشرقية والغربية ، ثم اشتبكت مع مركب تركية قادمة إلى الإسكندرية وعليها بعض التجار المسلمين ومعهم بضائعهم فهاجمتها السفينة المذكورة وقاتلت من فيها إلى أن خرج رماة المسلمين فى القوارب ليمنعوهم من النزول إلى البر ، واستطاعوا إبعادهم إلى خليج السلسلة حيث أرسيت بالقرب من الباب الأخضر ثم بدأوا يجولون يميناً وشمالا . . . فاتصل الأمير سيف بلاط نائب السلطان بإسكندرية بقناصلة الفرنج المقيمين بها للوقوف على أمره هذا السفينة ومعرفة سبب جولتها فى المياه المصرية — فعلموا ممن كانوا فيه أنهم يريدون أكلا وشراباً ثم يرتحلون . فأرسل لهم مأكولا وقرب ماء — فأخذوا القرب بمائها وكانت نحو الخمسين قربة وتناولوا الطعام ، وفى أثناء ذلك شاهدوا مركباً قادمة من الشام

---

(١) راجع المخطوط ص ٩٤ وجـ ١ و ٢ و ٣ . . . إلخ .

فوثبوا عليها واستولوا على ما فيها من البضائع وألقوا رجالها فى خليج أبو قير ومضوا بها ولم يراعوا حق الإحسان بما طعموا وسقوا .

الرابع — هجم قراصنة عزاب (سفينة) على الجزيرة المقابلة لرشيد وأسروا خمسة وعشرين من سكانها ما بين رجال ونساء ثم حدثت معركة دموية بين القراصنة وأهالى الجزيرة انتهت بفرار المعتدين .

الخامس — فى فجر ٢٧ شعبان ٢٦١ هـ (١١ يونية ١٣٦٣ م) وصلت ثغر أبو قير ثلاثة أغربة (سفن) وأسروا ٦٦ نفراً من المسلمين ما بين رجال ونساء وصبيان واختطفوا غنائم كثيرة ومضوا بها إلى ساحل صيدا بالشام افتدتهم منهم المسلمون وعاد الجميع إلى أبو قير .

السادس — كثرت اعتداءات القراصنة المسيحيين على ثغر أبو قير وكان يعاونهم جواسيسهم وقد أدى ذلك إلى اشتباك الأهالى بالمعتدين والانتقام منهم .

السابع — ما فعلته عوام المسلمين بالإسكندرية بقتلهم بعض من بها من البنادقة .

تلك هى أهم الأسباب التى ذكرها النويرى والتى حدت بملك قبرص لتدبير حملته لغزو مصر .

وقد وجه جل عنايته للاستيلاء على عروس البحر المتوسط . فقد كانت أهم منفذ لتجارة الشرق فى طريقها إلى الغرب ، إلى جانب أهميتها الاستراتيجية . وبالاستيلاء عليها يصبح صاحبها مسيطراً على ثغرها العظيم وحصونها المنيعة وكافة طرق المواصلات البحرية فى شرق البحر المتوسط . وفيها يستطيع إعداد جيش كبير يتجه إلى القاهرة عاصمة الشرق الإسلامى ويستولى عليها .

ويقول النويرى : إنه كان للملك بطرس أعوان كثيرون فى الإسكندرية يمدونه بالمعلومات أولا بأول ومنهم شمس الدين بن غراب الكاتب فى ديوان الإسكندرية وقد قبض عليه فيما بعد وقطع جسمه إلى شقين ويقول أيضاً النويرى : إن الملك المذكور استطاع الحضور بنفسه إلى اسكندرية فى زى تاجر وإن شمس الدين رافقه فى خلال اطلاعه على أسوار الثغر وحصونها ومواقع الضعف فيها .

وكانت للملك عدة مزايا يمتاز بها فقد كان حاكم الإسكندرية عند وصول الحـملة كما قلنا – غائباً عن المدينة يؤدى فريضة الحج وهو خليل بن صلاح الدين بن عوام(١) .

كما كانت حامية الإسكندرية ضعيفة للغاية وقليلة العدد بالنسبة إلى فترة الأمن والهدوء الطويلة والتى مرت بها بدون أحداث تذكر . فضلا عن إهمال حصونها منذ استتب الحكم الإسلامى فى مصر . وكان النيل فى فيضانه العالى مما تسبب عنه عدم الإسراع فى إرسال النجدات العسكرية من القاهرة .

هذا علاوة عن أن الأحوال العامة فى البلاد المصرية لم تكن على ما يرام . فقد كانت شخصية السلطان ضعيفة لا تصلح لزعامة الجهاد والنضال . كان السلطان شعبان ولداً يافعاً يتصرف فى أمره الأمير يلبغا ويوجه أمور الدولة كما شاءت مآربه الشخصية .

وإلى جانب كل هذه العيوب فى الإدارة المحلية كانت عيون الفرنج من قناصل وتجار فى كل مكان ولا شك أن هؤلاء أمدوا الملك بطرس بما ابتغى الوقوف عليه .

وصول حملة قبرص

يقول النويرى الإسكندرى إنه لما علم بظفر الفرنج بالإسكندرية اختلط بهم لمعرفة لغتهم بعد أن تزيا بزيهم وتوصل إلى الملك القبرصى وصار من جملة خدمه فاختلس أحد مهاميزه الذهبية واحتفظ به إلى أن باعه بثلاثمائة درهم !

أتى ملك قبرص بأسطوله فى يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧ هـ (٩ اكتوبر ١٣٦٥) فأرسى بحذر فى خليج السلسلة حيث الميناء الغربية للإسكندرية . وكان فى استطاعته النزول إلى البر ولكنه أجل ذلك إلى اليوم التالى.

اعتقد أهالى الإسكندرية أن تلك السفن كانت لتجار البنادقة الذين يأتون

بمتاجرهم على جارى عادتهم كل عام . فلما لم يدخلوا الميناء بات الناس فى خوف شديد وبدءوا يتجمعون وكان للملك قد أرسل سفينة للاستكشاف ولكنها ولت راجعة تحت وابل عنيف من سهام الإسكندريين . وبدأ الجند يركبون أسوار الحصون لضرب المعتدين .

وتجمعت سفن العدو فى تشكيل القتال وجاء الليل . فأوقد الجند المصابيح لإضاءة الحصون، ولكى لا ينتفع المهاجمون بستر الظلام فتتسرب جموعهم نحو الشاطىء فرادى .

وفى يوم الجمعة ١٠ اكتوبر بدأت جموع كثيفة من الأهالى تغادر المدينة متجهة إلى جزيرة المنارة . وهم فى ذهول فقد بوغتوا بهذا الهجوم الغادر بينما كان تجارهم منهمكين فى البيع كعادتهم غير عابئين بما يخفيه العدو لهم . وهكذا نراهم قد احتشدوا فى وجوم مستهدفين للموت . وقد حمل بعضهم سيفه وترسه ومنهم من معه نبله وقوسه ومنهم من معه رمحه وخنجره . . ومنهم من ليس عليه سوى ثوبه الذى يستره . . وبعضهم لبس الزرد المنضد وبعضهم من هو عارى مجرد . . . وصار العوام يشتمون القبرصى ويسبونه بكل لفظ قبيح والعدو صامت يتحفز .

وعند وضوح شمس الجمعة أقبل العربان من كل صوب ليس مع كل واحد منهم غير سيفه ورمحه أو قوسه .

قلنا إن حاكم إسكندرية خليل بن صلاح الدين بن عرام كان غائباً عن مقر منصبه يؤدى فريضة الحج . ولم يكن وكيله النائب من الخبرة أو الدراية يسيطر على الموقف الخطير وليمنع تجمع الأهالى أو حشدهم فى داخل الأسوار أو يأمر الجند بالصمود فى الحصون لإحباط عملية نزول العدو إلى البر والمقاتلة من خلف الأسوار ليفطن العدو أن خلفها حامية شديدة المراس . إلى أن تصل من القاهرة النجدات .

وكان نائب الحاكم هذا فى مرتبة صغيرة — هى أمير عشرة — ضعيفاً جداً جاهلا اسمه « جنغرة » وكان الموقف يسير بسرعة من سيئ إلى أسوأ — وتقدم تاجر مغربى اسمه عبد الله يقترح على هذا الوكيل بأن يعمل على إدخال الأهالى فى داخل المدينة المسورة لكنه لم يعن بهذه النصيحة وقال له : « لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ولو قطعت منى الأوداج » ولكنه أمر أن تسد الأبواب

الثلاثة وتوصد بالحجارة والمونة . حدث كل هذا بينما وقف حشد الأهالى يصيحون فى أوجه المعتدين .

ثم تقدمت سفينة كبيرة (غراب) بعد ساعتين نحو البر لتنزول من بها من الجند . فتصدت لها جماعة من المغاربة وخاضوا فى الماء الضحل فى محاولة يائسة وناوشوا من فيها ومسكوا الغراب بأيديهم وطلبوا من الزراقين النار ليحرقوه فلم يأت أحد بشرارة ، وذلك لقلة أهميتهم وتهاونهم وغفلتهم. فاستعجلوهم بالنار فرموا بمدفع فيه نار هزيلة فوقعت فى الماء وانطفأت. والتحم المغاربة بجند العدو وضربوهم بالسيوف ولكن تغلب العدو عليهم . ودخل الغراب الساحل وتبعه آخر كان يرمى من فيه بالسهام . فلما دخل البر تتابعت الغربان داخلة من أماكن متفرقة فنزلت الفرنج سريعة من سفنها بخيلها وجندها . وتم كل ذلك فى صباح يوم الجمعة ، وكان أول النازلين من العدو « آمية الثالث » أمير جنيف الذى التف به جموع المسلمين ولكن أنقذه منهم سيمون دى نوريز وجان دو مورف . ثم نزل الملك يحف به الأمراء . واتجه آخرون إلى الميناء الجديدة وهاجموا مؤخرة المصريين . وعلى هذا النسق صار الهجوم من ناحيتين واستعرت الملاحم فى كل ناحية فلما رأى الباعة ما حدث وجموا وأسرعوا مدبرين لينجوا بأنفسهم . وكانت الفرنج مسربلة بالزرد والصفائح الحديدية والخوذ اللامعة على رءوسهم وبأيديهم السيوف القاطعة أو القسى . وقد أبلى فرسان العرب بلاء حسناً فى قتال العدو حتى هزموا وأصيب « جنغرة » برمية سهم أقعدته .

كسب الفرنج المعركة فى ساعات قلائل وتكدست جثث القتلى أمام الأبواب ولم ينج أحد بحياته ممن كان فى خارج الأسوار .

ولكن الأسوار ظلت موصدة ولم يصب الإسكندرية شيئاً بعد بالرغم من محاولة المهاجمين لاقتحام الأبواب . وحيال ذلك رأى الملك أن يؤجل عملية الاقتحام لليوم التالى ومنح راحة لقواته يستجمون فى خلالها لإعادة الكرة فى صباح الغد .

وقد أبلت فى ملحمة هذا النهار جماعة من المرابطين وهم فى رباطهم خارج باب البحر بالجزيرة . فإنه لما تكاثرت الفرنج حول الرباط صار رماة المسلمين فى أعلاه يرمون سهامهم على العدو فقتلوا من الفرنج جماعة حتى إذا نفدت سهامهم

عمدوا إلى شرفات الرباط وصاروا يهدمونها و يرمون الصليبيين بحجارتها إلى أن نفدت حجارة الشرفات . فاقتحم الفرنج من الشرفات وأبادوا من وجدوه حياً من المرابطين كما أسروا نفراً منهم وأخذوهم إلى سفنهم .

ندم جنفرا لأنه لم يصغ إلى نصيحة عبد الله ولكن ضاعت الفرصة ودب الهلع فى قلوب الأهالى . .

ولما سقطت الجزيرة كلها و باتت فى قبضة الفرنج اجتمع شمل القادة حول مليكهم للاتفاق على الحركات التالية التى يتعين انتهاجها لحصار المدينة واقتحام أسوارها وتوزيع وجهات القتال المنتظر .

وقام أحد البارونات يحبذ حقن الدماء والعودة بعد الانتقام وأوضح أن المدينة منيعة وحاميتها قوية وأنه من الصعب بما توفر لديهم من الجند أن يتابعوا المسير إلى القاهرة و بيت المقدس . فليست فى طريقهم حصون يمتنعون داخلها لو أصيبوا بنكبة . وقد وافق على هذا الرأى بعض البارونات . ولما انتهت المناقشة قام الملك خطيباً يحاول أن يثنيهم عن رأيهم وتوسل إليهم أن يستمروا معه فى إكمال المشروع الخطير الذى استعدوا له .

وأخيراً اتفق الرأى على الاستيلاء على المدينة عنوة باقتحام الأسوار وأمر الملك بمنح جائزة ألف فلورين ذهباً لأول من يصعد فوق السور ومنحه خمسمائة فلورين للثانى وثلاثمائة للثالث .

حدث كل هذا خارج السور المنيع . بينما كان جنفره ورجاله يعملون جهدهم للمحافظة على ما تبقى لهم والدفاع إلى آخر رمق من حياتهم .

الدفاع عن إسكندرية

جمع المصريون (الإسكندريون) ما لديهم من قطع المدفعية والمشاة عند جزء السور المواجه للعدو فى جزيرة المنارة — بين باب البحر (Porta maris) والطرف الغربى للمدينة . وأسرع جنفرا فدخل الإسكندرية من باب الخوخة ، فأتى بيت المال وأخذ ما كان فيه من ذهب وفضة وأخرجها من باب البر وأمر تجار

الإفرنج وقناصلهم وكانوا نحو خمسين فى الإسكندرية بالخروج والذهاب إلى ناحية دمنهور . وحين امتنعوا عن الخروج سلمهم إلى الحراس بعد قتل أحدهم الذى امتنع بتاتاً عن تنفيذ الأمر .

احتشد المصريون لدى الجزء الغربى من السور عند باب البحر — وكان أضعف أجزاء السور يواجه الجزيرة والميناء القديمة حيث حشد العدو أسطوله — وقد اعتبروا أن بقية أجزاء السور منيعة وآمنة لا يجرؤ العدو على اقتحامها . تحف به مياه الميناء الجديد شمالا ومياه الخليج (مكانه ترعة المحمودية) جنوباً . وهذان مانعان قويان فى وجه العدو .

ولكن كانت هناك ناحية ضعيفة فى سلسلة الدفاع هذه كما سنرى . وتختلف الرواية الإفرنجية عن رواية النويرى فى اقتحام المدينة . يقول النويرى :

أن الفرنج عمدوا إلى إشعال الحريق بباب البحر فلما حاولوا ذلك تتابعت عليهم السهام من أعلا السور فقتل من الفرنج جماعة . فحاروا فى أمرهم ثم رجعوا إلى الميناء الشرقية فلم يجدوا أحداً على السور فدرجوا إلى جهة باب الديوان فأحرقوه ودخلوا منه، علاوة على مانصبوه هنالك من السلالم الخشب لاعتلاء قمة السور . فلما رأتهم المسلمون الذين على السور من البعد قد صعدوه وبينهم وبين الفرنج برج عال غير نافذ إليهم اتضح لهم أنه لا فائدة من المقاومة وبدءوا فى الانسحاب أمام جحافل العدو الكثيفة . فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج وسلم منهم من خرج إلى البر . فلو كان السور الذى يلى البحر جميعه معمراً بالجند من جهة الديوان والصناعة لسلمت منهم الإسكندرية . وهكذا يقول النويرى إن الهجوم الأول وجهه الفرنج نحو باب البحر ، وليس باب الديوان ، وإن هذا الهجوم فشل كما ذكرنا . ولم يكن يحمى ما يلى الديوان حامية . كما لم يكن أمامه أو خلفه خندق ممتد، ولذلك نجح المهاجمون فى اقتحامه وأسرعوا يشعلون النار فيه للتخلص منه . كما أسرع الملك يحلق قنطرة على الخليج لكى لا تصل الإمدادات إلى المسلمين .

وكان فرار أهل الإسكندرية من باب السدرة وباب الزهرى وباب رشيد بعد زحام شديد . فمنهم من أدركته الفرنج عند باب السدرة فقتلته، ومنهم من أسرته ومنهم من نزل من السور بوساطة الحبال والعمائم — ثم صعد الفرنج على أعلا باب

السدرة ونصبت عليه الصلبان — وامتلأت الحقول بالأهالى — ونهب بعضهم العربان . أما الفرنج فقد استباحوا كل شىء فى المدينة . وقتلوا كل شيخ عاجز أو طفل رضيع وفتكوا بالنسوة . وظلوا ينهبون ويغنمون طوال عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ، واحرقوا الحوانيت والأسواق والفنادق والوكائل والمدارس والمساجد وكذلك الدور . وقدر المؤرخ ميشو عدد القتلى من أهالى اسكندرية عشرين ألفاً

وبينما كان الملك بطرس على رأس جماعة من رجاله فى طريقهم لحرق قنطرتين على الخليج وقد غادروا باب السدرة فاجأهم كمين من المصريين قوامه عدة آلاف من المجاهدين ونشبت معركة حامية بين الجانبين جرح فيها الملك واستطاعت الجماعة العودة إلى قواتهم بدون أن يحققوا مآربهم .

ثم أمر الملك بتوزيع رجال الحراسة عند الأبواب وفوق الأسوار لمقاومة أى هجوم مضاد ينهض به المصريون ، وانصرف بعد ذلك للراحة فى أحد الأبراج ولكن لم يذق طعم الاستجمام . ففى الليل تسربت قوه من المسلمين إلى داخل المدينة بعد اقتحامها أحد الأبواب الجنوبية وقام الملك لتنظيم رحى المعركة التى نشبت فى خط النهار وانتهت بعد قتال عنيف برد الإسكندريين عن المدينة .

فظائع القبرصيين فى الثغر

بالغ المعتدون فى اقتراف الفظائع . فقد احرقوا فندق الكتيلانيين والجنويين وفندق الموزه وفندق المارسيليين . ثم كسروا حوانيت الشماعين والباعة بعد نهب قياسر البزازين وتحطيم ما فيها من الأوعية والأوانى . كما نهبوا حوانيت الصاغة وأخذوا ما فيها من مال وحلى . كذلك نهبوا حوانيت القماش والنسيج والحرير وغنموا ما فى الدور من الأموال والمتاع والفرش والمصاغ والبسط والأوانى النحاسية ونزعوا باب المنار وشبابيك إحدى القباب التى بالجزيرة ، وأحرقوا سقوف الربط التى بها وكسروا قناديلها وقناديل المزارات ، وأفسدوا قصور الجزيرة ومقابرها . وصعدوا صومعة المدرسة النابلسية فوجدوا فيها جمال الدين بن مشيادها مختفياً منهم بها . وكان شيخاً كبيراً ضعيف البنية . فألقوه على رأسه من أعلاها إلى الأرض

فاندقت عنقه فمات شهيداً . وقتلوا من وجدوه بالمساجد . وقتلوا الناس بالدور والحمامات والطرق والخانات والكنائس . وكانت الفرنج تخرج بالغنائم من الإسكندرية إلى مراكبهم على الإبل والخيل والبغال والحمير . فلما فرغوا من النهب وقضوا أربهم من الثغر طعنوها بالرماح وعرقبوها بالصفاح فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد . فهلكت وجافت فاحرقتها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها .

ومن حسن الحظ أن الفرنج لم تصل أيديهم إلى قصر السلاح[1] قيل أنه احتوى ستة آلاف سهم وآلاف السيوف والرماح والمزاريق والترس والخوذو القنابر والزرد والزرديات والأطواق والقرقلات والسواعد والركب والساقات والأقدام الحديدية والقسي الملولبة والأعلام والمدافع وقاذفات النفط وما إليها . فلو علمت به الفرنج لاحرقته سريعاً . وكانوا قد وصلوا إلى بابه فظنوه أحد أبواب المدينة وخافوا من كسر بابه مخافة أن يكون خلفه كميناً يطبق عليهم .

ولقد قال الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد حارس القصر المذكور ويعرف بابن قراجا ما يلي « كنت فيه بمفردى لما دخل الفرنج الإسكندرية . فأغلقت بابه وقرأت حزب سيدى الشيخ الصالح أبو الحسن الشاذلى وإذا بالفرنج أتوا إلى الزريبة « دار السلاح » فيهم خيالة ومشاة ، وكنت صعدت أعلا القصر فصرت أنظر اليهم من شقوق حائطه . فطلع بعضهم على زلاقة بابه وصاروا يتشاورون فى أمره — وكنت أعددت لنفسى مكاناً أختنى إن دخلوه لكن خفت أن يحرقوه فأهلك بالنار فوقفوا ساعة وتركوه ومضوا . فرأى أحدهم صبياً بالزريبة يعدو سريعاً عند معاينته لهم . فعدا الفرنجي خلفه — فلما أحس به الصبي وقف باهتا من الخوف فضربه الفرنجي بسيفه فتلقى الصبي الضربة بيده اليسرى . فطارت إلى الأرض ثم ضربه أخرى على عاتقه فوقع على شقه الأيمن مستقبلا القبلة ومضى وتركه . وما أمكننى النزول من القصر اليه خوفاً من رجوع الفرنج إلى الزريبة . فصار الصبي مطروحاً على الأرض إلى أن مات شهيداً »

وحرق الفرنج أبواب البحر الأول والثانى وأبواب الباب الأخضر الثلاثة و باب الخوخة وأحرقوا أيضاً دار الطراز والديوان بعد أن أخذوا ما فى دار الطراز . كما أحرقوا قلعة ضرغام.

(١) كان يعرف موضعه بالزريبة .

وقد وصف النويرى ما أتاه الفرنج من فظائع فى فيض من الإسهاب . ومما ذكره أن الفرنج كانوا يذبحون المرأة ويذبحون طفلها على صدرها . إلى غير ذلك . وقد استخلص تلك الفظائع فى سطرين المؤرخ عزيز سوريال عطية فى كتابه المعروف بقوله :

"Acts of cruelty of the worst type were committed without scruple and without regard to age or sex. The city became a scene of horror and open grave. The occupation of the city lasted only seven days, yet it is staggering to realise howin a period so short, the hand of ruin could disspate so vast an accumulation of wealth and prosperity - the outcome of centuries of peace and industry.(١)

والآن وقد انتهى الأمر بالاستيلاء على الإسكندرية . استدعى الملك بطرس كافة أمرائه وبارونابه ورؤساء الحملة . لاجتماع فى الجزيرة للمشاورة فى الموقف الجديد . وانقسمت الآراء . فقد رأى الملك وبطرس توماس وفيليب ميزيير عدم الجلاء عن المدينة والعمل على بقائها فى أيديهم — وكان رأى الأغلبية وعلى رأسهم الفيكونت دى تورين معارضاً فقد أوضح للمجتمعين استحالة الدفاع عن المدينة وهم قلة، بينما أبواب المدينة مهددة بهجوم يقوم به المسلمون وهم كثرة وقد اتفق معه على هذا الرأى رجال الوحدات الأجنبية الذين كانوا يهدفون إلى الغنم والنهب — وها هم قد حققوا مأربهم بما استولوا عليه من النفائس وما تلفون فى المدينة. وفى أثناء تلك الحوادث وصلت إلى الفرنج الأخبار بأن سلطان مصر يتقدم من القاهرة على رأس جيش كبير لاستخلاص المدينة .

ومما يثير الدهشة أن بعض أمراء الجيش القبرصى انضموا إلى الرأى الثانى وعارضوا مليكهم . ورأوا إخلاء الإسكندرية والعودة على سفنهم بعد ما امضوا سبعة أيام ينهبون ويغنمون ويأسرون فقد بلغ عدد من أخذوه إلى سفنهم خمسة آلاف من المسلمين والمسلمات واليهود والمسيحيين الشرقيين الذين وزع أكثرهم على ملوك الدول المسيحية، ولم يعد منهم إلا القليلون الذين افتدوا بالمال بعد مفاوضات عقيمة بين قبرص ومصر .

(١) Aziz Suryal Attiya : page 367.

وأخيراً رأى ملك قبرص وحفنة من رجاله المخلصين فى يوم الثلاثاء ١٦ اكتوبر ١٣٦٥ أنهم لا يستطيعون وحدهم تحقيق حلمهم الجميل . بل كيف يتهيأ لهم اتخاذ أى قرار وتنفيذ أى خطة والجند قد تخلوا عن مراكزهم العسكرية وعادوا يحملون الغنائم فرحين ، وقبعوا فى سفنهم يحتسون و يتسامرون و يستعدون للعودة إلى جزيرتهم .

طلائع النجدة المصرية

و بينما كان الفرنج يستعدون لركوب السفن كانت طلائع الجيش المصرى على مقربة من ضواحى الثغر بقيادة الأمير كتبغا المصرى والأمير كندق وخليل ابن توسون فأسرع قباطنة السفن فى فك الأشرعة والإبحار من المياه المصرية دون أن يصيبهم خطر من سفن المصريين التى أصابها التلف .

ولقد كان من أهم أسباب تأخر وصول النجدات ارتفاع مياه النيل وانسيابها على أراضى الطرق، مما جعل رجال النجدة يتبعون طريق الصحراء الغربية إلى الإسكندرية . وهناك سبب آخر يقول بأن يلبغا الخاصكى أتابك الجيش — وكان مكروهاً من جماعة من رؤساء المماليك — اعتقد فى بادىء الأمر عند ما وصلت إليه أخبار الاعتداء من جنفرة أنها مكيدة مدبرة للتخلص من نفوذه بالقرب من السلطان و إبعاده إلى الإسكندرية . فتلكأ بضعة أيام حتى صحت لديه الأنباء وشاهد بنفسه أفواج اللاجئين والهاربين من الإسكندرية .

وتشاء الصدف أن يصل إلى مصر صلاح الدين بن عرام حاكم الإسكندرية عائداً من الحج ، فأمر الأتابك أن يقصد الثغر فى الحال على رأس الجيش . فدخلها فى ٢٥ المحرم (١٢ اكتوبر ١٣٦٥) ونزع ما كان على أسوار المدينة من أعلام صلبان النصارى ونصب عليها أعلام المسلمين و وجد أسطول الفرنج محصنا بالبحر ، فتيقن العدو أن النجدة وصلت الثغر . ثم رأى أن يتصل بالملك للاتفاق على إعادة الأسرى ومبادلتهم بالمسيحيين الذين فى دمنهور . فأرسل فى ١٤ اكتوبر يهودياً اسمه يعقوب فى قارب و يقص علينا هذا الرسول أنباء مهمته قائلا :

« لما أرسلنى الأمير صلاح الدين لملك قبرص فتشنى الفرنج ثم كتفونى

وصار على رأسى أفرنجيان معهما سيفان مجردان أحدهما عن يمينى والآخر عن شمالى ماشيان معى . فتخطوا بى أربعين غراباً (سفينة) ملصقة بعضها ببعض . وأنا أشاهد أسارى الإسكندرية المسلمين واليهود والنصارى الزمنيين الرجال منهم والنسوة والإماء والأطفال والصبيان إلى أن وصلت إلى الملك فى آخر الغربان . وإذا به جالس فى خيمة كبيرة لها شبابيك محيطة بها ينظر منها إلى البحر وعن يمينه راهب وعن يساره آخر — فلما أوقفونى بين يديه . قال من هو هذا . قالوا رسول أتى من عند الأمير صلاح الدين بن عرام نائب السلطان بالإسكندرية . فقام عند ذلك على قدميه . وقامت الرهبان لقيامه ثم جلس الملك وجلسا بجلوسه . ثم قال الملك اجلس فجلست وإذا بين يدى الملك من نساء الإسكندرية جماعة كبيرة حسان الوجوه — وعلى رأس الملك تاج من الذهب بأعلاه جوهرة مضيئة وعليه الجوخ الرفيع المزرر بأزرار الذهب واللؤلؤ المنظوم . فقال لى فيم أتيت — فقلت — يقول لك نائب السلطان إن عندنا ثمانية وأربعين إفرنجياً بجاراً أعطنا المسلمين ونعطيكم — فقال سلم على نائب السلطان وقل له يكتب لنا كل واحد منهم كتاباً بخطه الرومى يعرفنا اسمه واسم أبيه واسم أمه وكم فى الشهر الرومى من يوم . فإذا صح لنا ذلك علمنا أنهم بالحياة نفديهم بأسارى الإسكندرية . وما لنا إقامة إلا إلى غد العصر ونرحل . قال اليهودى فرجعت . وأعلمت نائب السلطان بذلك »

فلما طلبوا الأسارى من دمنهور كان وصولهم إلى الإسكندرية بعد قيام سفن العدو ورحيلها .

رحل الملك بطرس وبعد رحلة شاقة وصلت السفن إلى ثغرى قبرص — ليماسول و فاماجوستا . ثم أقيم احتفال كبير فى نيقوسية للابتهاج بالنصر الكبير وتناثرت أنباء الظفر على جميع الدول المسيحية التى اشتركت فى الحملة . وبارك البابا هذا النصر المسيحى .

ولكن قابلت البندقية قيمة هذه النتيجة بعدم الارتياح . نظراً لما قد يؤثر على علاقتها التجارية بمصر ، فاسرعت إلى إرسال وفد إلى السلطان للاعتذار عن اشتراك بعض البنادقة فى الحملة . وطلب صاحب البندقية من سلطان مصر أن يعفو عن

هذه الزلة راجياً عودة الصفاء بين البلدين كما كانت عليه العلاقات من مودة — ولكن رفض السلطان الشاب رفضاً باتاً الاتفاق مع أية دولة مسيحية ما زال فى حالة حرب مع قبرص، وأصر على أن الصلح ينبغى أن يتم أولا مع ملك قبرص. فعاد الوفد الى قبرص ليطلب من الملك فتح مفاوضات الصلح مع السلطان.

العودة إلى إسكندرية

لما دخل الأمير الأتابكى يلبغا الخاصكى إسكندرية وشاهد ما آل أمرها إليه من الهدم والحريق والقتلى المطروحة بظاهرها و باطنها، حزن على ما أصابها وأصاب أهلها فى أيام عزه وحكمه. فلام نفسه على عدم البقاء بها حين بلغه أن العمارة بجزيرة قبرص — وأمر حينذاك الأمير صلاح الدين بدفن القتلى. فدفنها — وأمده بالأموال لعمارة ما خرب منها — فاجتهد فى العمارة وشق خندقاً الى جانب السور الذى توصلت منه الفرنج إلى إسكندرية — وهذا الخندق الجديد كان محاذياً للموضع المسمى من داخل السور بدار الصناعة وديوان الخمس — ومجارى الأفنية، وصله بالخندق الأصلى، أوله ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر إلى قلعة ضرغام — فزاد من القلعة المذكورة إلى أن وصله بخليج الميناء الشرقية — وكانت مياه البحر قديماً تضرب فى السور إلى قرب قلعة ضرغام، ولذلك ترك المتقدمون ذلك المكان بغير خندق ثم انطرد البحر عن السور بعد ذلك فصار ذلك المكان بغير خندق(١)

وملخص القول أن الأمير صلاح الدين عنى بتحصين الإسكندرية بما شيده أو جدد بناءه من الأبواب والأسوار والأبراج لكى لا تحدث نكبة أخرى. وقد كوفئ على همته هذه بأن ولاه الأمير الأتابكى فى منصب شاد الدواوين « وزير الأشغال » وولى الأمير سيف الدين الأكز الإسكندرية ولكنه بعد أن أقام فيها سنة واحدة عزله من ولاية الثغر وأعاد إليه الأمير صلاح الدين.

---

(١) أقام الأمير المذكور أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان وسد الباب الأخضر وباب الخوخة.

المفاوضات بين مصر وقبرص

قامت المفاوضات بين مصر وقبرص فى دورين – ففى الدور الأول ثبت من المحادثات التمهيدية التى دارت بين المفوضين أن هناك بارقة أمل من النجاح وكان يرأس مندوبو مصر الأتابكى يلبغا الخاصكى الوصى على عرش مصر فى عام ١٣٦٦.

وكان ملك قبرص قد صرف الجنود الأجنبية من بلاده ولم يعد ينتظر أية معاونة خارجية تتأتى له من دول الغرب. وأرسل ثلاثة من الكتاليين يمثلون قبرص لدى السلطان، وهم جان دا ألفونسو اليهودى المتنصر، وجورج ستيكا وبول دى بيلونيا – ولما وصلوا كانوا يحملون أوراق الاعتماد والهدايا النفيسة ونزلوا فى اسكندرية ثم سافروا إلى القاهرة حيث استقبلهم السلطان – وكان أول سؤال له أن طلب منهم رجاء سيدهم فى إعادة الأسرى الذين حملهم القبرصيون معهم. ولكى يبرهن الملك على حسن نيته أجاب مطلب السلطان بالموافقة وبعودة الأسرى على سفينة خاصة فى حراسة بول دى بيلونيا. وكان عدد الذين بقوا فى الجزيرة قليلا، لأن الملك كان قد وزع معظمهم على الدول الغربية – وكانت عودة الأسرى من قبرص دليلا واضحاً على إجابة الشرط الأول الذى طلبه السلطان. كما أعاد الجنوبيون ستين أسيراً كانوا عندها. ولما اتضح للسلطان حسن نية القبرصيين وحلفائه ماطل فى عقد الصلح النهائى. بالرغم من استمرار المفاوضات ووقفها عدة مرات فى خلال أربع سنوات. اعتدى فى خلالها قراصنة قبرص على سواحل مصر والشام، وذلك بقصد إرغام السلطان على توقيع الصلح النهائى وتهديده بين حين وآخر. ومن المحتمل أن المماليك كانوا يهدفون من وراء المماطلة إطالة الوقت ليكسبوا الوقت، ولكى ينشئوا قوة بحرية يحرزوا بها التفوق على خصومهم.

وقد نشط الأمير يلبغا فى بناء بحرية مصرية. فأصدر تعليماته إلى جميع الخشابين فى الديار الشامية والمصرية لقطع الأخشاب الصالحة، كما أمر رجال دور الصنعة بالعمل ليل نهار فى صنع السفن الحربية. واستطاع فعلا إعداد مائة وخمسين سفينة حربية ونقالة.

ولما لاحت نية السلطان شجع ملك قبرص قراصنته على الاعتداء على نهب السواحل الشامية، ثم أقدم فى عام ١٣٦٦ بنفسه على رأس حملة بحرية اشتملت على ١١٦ سفينة شراعية و ١٦ سفينة صغيرة و ٥٦ سفينة حربية و ٦٠ سفينة كبيرة. ولكن عصفت زوبعة بهذا الأسطول فأفسدت خطته ولم تصل إلا خمسة عشر سفينة إلى طرابلس الشام بقيادة فلوريمونت دى لزيار ونهب المدينة وعاد إلى قبرص.

وفى عام ١٣٦٧ وصل إلى القاهرة وفد قبرصى جديد للمفاوضة برئاسة جاك دى نوريز ولكن كان نصيبه الفشل وارتد خائباً إلى فاماجوستا. وكان الرد أن هوجمت طرابلس ثانية فى سبتمبر. وفى هذه الغزوة انتقم الطرابلسيون من القراصنة وأعطوهم درساً قاسياً وتغلبوا عليهم. فركبوا سفنهم واتجهوا نحو ثغر طرطوسة بالشام ونهبوا المدينة وحرقوا أخشاباً كثيرة كانت معدة لصناعة السفن وأتلفوا مقادير كبيرة من القطران والحديد والمسامير ثم ألقوها فى البحر، ثم قصدوا ثغر اللاذقية ولكن منعهم الريح الشديد والحصون الساحلية، واستولى اللاذقيون على ثلاث سفن فى الميناء وقتلوا بحارة أحداها.

ولم تنته حالة التوتر بين قبرص ومصر حتى قتل بطرس الأول على يد بعض أمرائه الذين ثاروا عليه وكان ذلك فى عام ١٣٦٩.

وفى أول عام من حكمه خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩ — ٨٢) استمرت الاعتداءات على شواطىء مصر وبنفس الأسلوب الذى تبعه قراصنة سلفه. وفى يونية ١٣٦٩ اعتدت أربع سفن تحت أمرة جان دى مورف على صيداء وطرطوسة واللاذقية، كما اعتدى على الإسكندرية فى رابعة النهار وأرسل قائد إحدى السفن إنذاراً إلى السلطان ومطالبته بالاتفاق النهائى ولما كان الجواب بالنفى اقتحموا الميناء القديم وهاجموا سفينة شراعية كانت آتية من مراكش. ثم اتجهوا نحو رشيد ولكن الريح العاصفة قاومتهم فلم يستطيعوا النزول إلى البر فغادروها قاصدين إلى صيداء وبيروت وتقاتلوا ثم عادوا إلى قبرص.

واستمرت التهديدات بين يوم وآخر موجهة ضد ثغور إمبراطورية السلاطين المماليك، ولكن لم تكن الحالة الداخلية فى مصر صالحة للانتقام

– فقد كانت فئة كبيرة من المماليك تعارض الأتابكى يلبغا ويشنون عليه عصا الطاعة . وانقسم رجال البحرية على بعضهم قسمين وانتهى الأمر بمقتل يلبغا .

لم يتحسن الموقف بل ازداد سوءاً وارتكبت التجارة المصرية وضعف الإيراد، وأخيراً اضطر السلطان تحت رزح الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد إلى الدخول جدياً فى مفاوضة ملك قبرص .

ففى ٢٩ سبتمبر ١٣٧٠ وصل وفد المفاوضة المصرى إلى قبرص وبعد أسبوع كانت الموافقة على شروط الصلح قد تمت وأعلن إخلاء سبيل الأسرى الإفرنج فى مصر والشام .

ولكن لم ينس المصريون الخراب الذى أصاب الإسكندرية من خصمهم اللدود « قبرص »، واستمر سلاطين مصر يعملون على الانتقام وإنزال العقاب الصارم بأسرة لوزينيان وبجزيرتهم . فلما تمت لهم العدة قاموا بضربتهم وهزموا القبرصيين وأتوا بملكها جانوس لوزينيان بعد معركة شيروكيتا . وهكذا غسل السلطان برسباى (١٤٢٤ – ١٤٢٦) هزيمة الإسكندرية بعد أن استعد لها ودون اسمه بحروف لماعة على صفحات تاريخ مصر الإسلامى .

باءت حملة القبرصيين أو الصليبيين بالفشل، فلم ينالوا هدفهم بالاستيلاء على الأرض المقدسة . ووقفت مصر تعد قوة برية وبحرية للانتقام والأخذ بالثأر . وتدرع سلطانها وحكامها بالصبر أعواماً طوالا .

لقد أصيبت الإسكندرية وجرح كبرياؤها كعروس البحر المتوسط . ولكن أعاد السلاطين إليها رواءها بعد أعوام .

لقد نهبها وخربها الفرنج الذين وفدوا عليها من الغرب فلماذا لا يكون إصلاحها على يد الفرنج القاطنين فى الشرق الإسلامى ؟

فما كاد السلطان برسباى يقبض على ناصية الظفر حتى أصدر مرسوماً سلطانياً بمصادرة أموال وممتلكات الفرنج والمسيحيين فى مصر والشام لإصلاح ما تخرب فى الإسكندرية . . .

عبد الرحمن زكى